

الفصل السادس

الآداب والتقاليد

وكما تميز المجتمع المسلم في العقيدة والشعائر ، والأفكار والمشاعر ، والأخلاق والفضائل ، يتميز كذلك بآدابه وتقاليده الخاصة به ، المصبوغة بصبغته ، النابعة من تلك الأمور المذكورة : العقيدة وما يتبعها ، ويتفرع عنها .

إن لهذا المجتمع آدابه وتقاليده : في المأكل والمشرب ، والزينة والملبس ، والنوم واليقظة ، والسفر والإقامة ، والزمالة والعشرة ، والعمل والراحة ، والصدقة والصحة ، والزواج والطلاق ، في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفي العلاقة بين الولد وأبيه ، وفي العلاقة بين القريب وقريبه ، وفي العلاقة بين الجار وجاره ، وفي العلاقة بين الكبير والصغير ، وفي العلاقة بين الغني والفقير ، وفي العلاقة بين البائع والمشتري ، وفي العلاقة بين الرئيس والمرءوس ، وفي العلاقة بين الخادم والمخدوم .

• من تقاليد المجتمع المسلم :

إن هذه التقاليد والآداب والعادات أنشأها الإسلام في المجتمع المسلم ، لتكون في خدمة عقيدته وشعائره ، ومفاهيمه ومشاعره ، وأخلاقه وفضائله .

فمن تقاليد المجتمع المسلم : أنه ينام مبكراً ، ويستيقظ مبكراً ، فيستمتع أفراداه بالنوم الهادئ العميق ، في الليل الذي جعله الله لباساً ، ويوفر صحة أبنائه وقوتهم التي يذبلها السهر الطويل ، ويوفر ملايين الكيلوات من الطاقة الكهربائية التي تستهلك في السهر لغير ضرورة ، ويتمتع الناس بعد ذلك بوقت البكور المبارك ونسيم الصباح المبكر ، وهذا التقليد الجميل المتميز إنما صنعته (صلاة الفجر) ووجوب الاستيقاظ لها ، وأدائها في وقتها قبل أن تطلع الشمس .

ومن هنا نتبين أن تقاليد المجتمع المسلم ، لا انفصال بينها وبين مقوماته الأخرى .

ومن تقاليد المجتمع المسلم : أن الرجل لا يجوز له أن يخلو بامرأة أجنبية ، بدون حضور زوج ولا مَحْرَم لها ، كما لا يجوز لها أن تسافر وحدها ، بلا زوج ولا مَحْرَم^(١) ، وأن المرأة المسلمة يجب عليها الاحتشام والتصون ، فلا يجوز لها أن تبدي من زينتها إلا ما ظهر منها كالوجه والكفين ، ويحرم عليها أن تبرج تبرج الجاهلية ، وأن تظهر ذراعها أو ساقها أو نحرها أو شعرها ، أو غير ذلك مما يفعله نساء العصر تقليداً للحضارة الجاهلية : حضارة الغرب .

إن هذا التقليد ليس عبثاً ولا تحكماً ، ولكنه مبني على نظرة الإسلام إلى كل من الرجل والمرأة ، ونظرته إلى الأخلاق في المجتمع ، وقيمة العفاف والتصون والحياء ، باعتبارها فضائل إنسانية رفيعة ، واعتبار الزنى فاحشة وجريمة خطيرة على الفرد وعلى الأسرة ، وعلى بناء المجتمع كله ، إذا شاعت وتطايير شررها .

فإن نتيجتها طغيان الشهوات ، وفساد الشباب ، وانتشار الخيانة ، والشك بين الأزواج والزوجات ، وشيوع الأمراض التناسلية ، وكثرة اللقطاء وأولاد الحرام ، واختلاط الأنساب ، وانحلال الروابط والأخلاق . وصدق الله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٢) .

فإذا كان الزنى فاحشة وسيئاً سيئاً ، لم يكن بد من إغلاق الطرق الموصلة إليه ، فجاءت آداب الإسلام وتقاليده في التصون والاحتشام ، ومنع التبرج والإغراء ، وسد الذريعة إلى الفتن ، ما ظهر منها وما بطن : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

(١) هذا هو الأصل ، ويستثنى من ذلك ما إذا سافرت في رفقة مأمونة ، ولم يخف أى خطر عليها ، ويدل لذلك : حديث الطعينة التي تسافر من الحيرة - بالعراق - حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله ، وبه استدل ابن حزم على جواز سفر المرأة وحدها عند الأمن .

وَلْيَضْرِبْنَ خُمْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ
أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ ﴿ الآية
(النور: ٣٠-٣١) .

ومن تقاليد المجتمع المسلم : أن بين الولد وأبيه رابطة أبدية مقدسة ، لا تنفصم
عراها ببلوغ الابن رشفه ، أو باستقلاله الاقتصادي ، أو بزواجه كما هو عند
الغربيين ، الذين يصبح الابن عندهم بعد أن يكبر ويتزوج كأنه شخص غريب عن
أبويه ، لا يكاد يعرفهما إلا في المناسبات ، إن عرفهما ، بل إن الإسلام ليوسع
دائرة الأسرة ، حتى تشمل الأقارب من الأصول والفروع والعصبة وكل ذي رحم
محرم من الرجال والنساء ، فالأجداد والجندات والأحفاد والأسباط ، والأعمام
والعمات ، والأخوال والخالات وأولادهم . . كل هؤلاء أرحام يجب أن تُوصل ،
وقرابة يجب أن تُرعى ، ولها حقوق يجب أن تُؤدى ، من الزيارة والمودة والإحسان ،
إلى وجوب النفقة والرعاية بالمعروف : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١) ، ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٧٥) ، ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾
(الإسراء: ٢٦) .

ومن آداب المجتمع المسلم وتقاليده : أنه لا يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير
وما أهلاً لغير الله به ، ولا يشرب الخمر والمسكرات ، ولا يقدم شيئاً من ذلك على
موائده . وهو يأكل ويشرب باليمين ، ويبدأ طعامه باسم الله ، ويختتمه بحمد الله ،
ولا يأكل أو يشرب في إناء ذهب أو فضة .

ومن آداب المجتمع المسلم : إفشاء السلام ، وهو تحية المسلمين فيما بينهم ،
وإلقاؤه سنة ، ورده فرض كفاية ، وقد أغناهم الله به عن تحايا الجاهلية من فعل
كالسجود والانحناء ، أو قول كـ (عِم صباحاً) ، أو (عِم مساءً) ، وقد وضع الرسول ﷺ
لهذه التحية قواعد ضابطة ، حتى لا يتواكل الناس في البدء بها إذا تلاقوا . . فيسلم
الصغير على الكبير ، والقليل على الكثير ، والمار على الجالس ، وقال تعالى :
﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (النساء: ٨٦) .

ومن آدابه ما ذكره القرآن بقوله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧-٢٨) .

ومن آداب المجتمع المسلم : الإحسان إلى الجار ، وإكرام الضيف ، وتشميت العاطس ، وعيادة المريض ، وتشيع جنازة الميت ، وتعزية المصاب ، إلى غير ذلك من الآداب والتقاليد ، التي تتفاوت في حكمها ما بين واجب مفروض ، ومُسْتَحَب مندوب .

● من آثار التقاليد الإسلامية :

إن هذه الآداب والتقاليد الإسلامية تحقق في المجتمع المسلم جملة من المزايا والآثار الطيبة ، نذكر منها :

١- التميز : فهذه الآداب والتقاليد تجعل للمجتمع المسلم شخصية متميزة الملامح ، واضحة التقاسيم ، وتمسكه أن يذوب وينصهر في غيره من المجتمعات فيتقمص شخصيتها ، ويقتبس عاداتها ، وينقل تقاليدها ، دون تفرقة ولا تمييز بين ما يجوز وما لا يجوز ، وما يصلح وما لا يصلح ، وهذا ما تورط فيه أكثر الشعوب المسلمة اليوم ، إذ انسلخت من ذاتيتها ، واتبعت حضارة الغرب وأخذت تقاليده جملة ، بغير تمحيص . وهذا ما حذر منه ونبأ به الرسول الكريم ﷺ حين قال : « لتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه! » . قالوا : اليهود والنصارى ، يا رسول الله؟ قال : « فمن؟ »^(١) .

٢- الوحدة العملية : إن هذه الآداب والتقاليد تنشئ بين المسلمين - وإن تباينت ديارهم ، واختلفت سنتهم ، وتباينت عروقهم ، وتفاوتت مراكزهم وطبقاتهم -

(١) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) ، ومسلم في العلم (٢٦٦٩) ، عن أبي سعيد .

وحدة عملية واقعية ، بجوار الوحدة العقيدية والفكرية والشعورية ، التي أنشأها اتحاد العقيدة والشعائر ، والأفكار والمشاعر .

فحيثما نزلت بين قوم مسلمين في أي أرض كانت ، حيوك بتحية الإسلام (السلام) ، واستقبلوك بالإكرام والقِرَى ، تبعاً لأدب الإسلام في إكرام الضيف : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »^(١) . فإذا تناولت طعامك معهم ، وجدتهم يبدؤون طعامهم باسم الله ، ويأكلون باليد اليمنى ، ويختمون بالحمد لله ، ولا يقدمون لك خنزيراً ولا خمرًا .

فهناك قدر مشترك من التقاليد والعادات ، يشعر المسلم أنّي ذهب أنه بين أهله وإخوانه وذويه ، لا يفترق عنهم ، إلا في جزئيات تفصيلية ، نتيجة لاختلاف البيئات والأحوال .

٣- البساطة والاعتدال : فإنّ تقاليد الإسلام وآدابه تقوم على مراعاة الفطرة ، واحترام البساطة واليسر ، وتجنب التكلف والتعقيد ، والبعد عن الاختيال والإسراف .

ومن شأن هذه البساطة والقصد والاعتدال ، أن تيسر الأمور ، وتقلل التكاليف ، وتخفف من بعثرة الجهود والأوقات ، والأموال ، فيما لا يعود على المجتمع واقتصاده وأخلاقه ومثله إلا بالضرر والخسران .

إنّ تقاليد المجتمع المسلم في الملبس والتزين للمرأة المسلمة ، تنافي هذا التهاك المحموم على كل بدع ، وهذا السباق المسعور على أقرب الأزياء إلى الإثارة ، وأقدرها على الإغراء ، وتناقض هذا الإسراف المجنون ، في التجميل والتجميل ، من وصل الشعر (الباروكة) ونمص الحواجب ، ووشر الأسنان و(جراحات التجميل) وغير ذلك مما لعنه رسول الله ﷺ لما فيه من تغيير خلق الله . ولم يعد يكفي المرأة أن تقوم بتجميل نفسها ، فاحتاجت إلى مَنْ يجملها ، ولم يعد

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ، ومسلم في الإيمان (٤٧) ، عن أبي هريرة .

القائم بالتجميل امرأة تأتي إليها في بيتها ، كما كان يحدث في العصور السابقة أحياناً . بل أصبحت المرأة هي التي تخرج من بيتها لتذهب إلى محل رجل أجنبي (كوافير) يقوم بتجميلها وتزيينها ويتقاضى على ذلك أفحش الأجور .

● مهمة المجتمع المسلم مع الآداب والتقاليد :

إن مهمة المجتمع المسلم هنا - كما هي مهمته دائماً - أن ييث هذه الآداب ، ويربي عليها أبناءه وبناته ، وينشئ عليها تلاميذه وتلميذاته ، في كل مراحل التعليم ومستوياته وأنواعه ، من الحضانة إلى الجامعة ، ويحببها إلى الشعب بكل وسيلة من وسائل التوجيه والإعلام ، وبكل أسلوب من أساليب التأثير والبيان : بالمقالة والقصيدة ، والقصة والمسرحية ، والنشرة والكتاب ، والمجلة والصحيفة ، والنكتة والكاريكاتير ، بالكلمة المقروءة والكلمة المسموعة والصورة المشاهدة . وأن تتعاون على ذلك كل المؤسسات : الدينية كالمسجد ، والفنية كالمرسح ، والتربوية كالمدرسة ، والإعلامية كالتلفاز ، ولا يجوز أن يبني جهاز في جانب ، وتهدم أجهزة أخرى في جوانب ، كما قال الشاعر :

مضى يبلغ البيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟
وقال آخر :

فلو ألف بانٍ خلفهم هادم كفى فكيف بيانٍ خلفه ألف هادم؟!

ولا سيما أن الهدم في عصرنا بالألغام لا بالمعاول . وهذا يصدق في الماديات والمعنويات جميعاً .

وواجب المجتمع المسلم في عصرنا أن ينقي آداب المجتمع وتقاليده مما دخل عليها من أمور غريبة عن طبيعته المتوازنة المعتدلة ، سواء في ذلك ما أدخلته عصور الانحطاط الفكري والتخلف الحضاري ، الذي أصاب العالم الإسلامي لعدة قرون ، وما زحفت به علينا الحضارة الغربية الحديثة من بدع منكرة ، في الأزياء والأثاث ، والمأكول والمشارب والأعراس ، ومختلف المناسبات والعلاقات بين الرجال والنساء ، وغير ذلك .

ولهذا نجد المجتمع الإسلامي الآن يضم فريقين من الناس يعيشان على طرفي نقيض .

فإذا أخذنا موضوع الأسرة مثلاً . نجد هناك مَنْ لا يسمح لخاطب ابنته أن يراها مجرد رؤية ، مع مخالفة ذلك للأحاديث الصحيحة ، بل في بعض البلاد لا يرى الخاطب زوجته بعد أن يعقد عليها العقد الشرعي ، وإنما يراها وتراه ليلة الزفاف فقط!

وفي مقابل هؤلاء مَنْ يدع للمخطوبة الحبل على الغارب ، لتخرج مع خاطبها وحدهما ، متأبطاً ذراعها ، غاديّين أو رائحين ، إلى المتنزهات أو السينمات ، سحابة النهار أو زلفاً من الليل ، حتى يسبر غورها ، ويعرفها معرفة مخالطة ومعايشة .

وهناك من الأزواج مَنْ يعامل امرأته كأنها قطعة أثاث في البيت ، لا يستشيرها في أمر ، ولا يعترف لها بحق ، ولا يراعي لها شعوراً ، ويرى ذلك من الرجولة . وعكس هذا مَنْ جعل زمامه في يد امرأته ، فلا شخصية له ، ولا أثر لقوامته على الأسرة ، بل تغدو الزوجة هي الأمرة الناهية ، المتصرفة في المال ، الموجهة لتربية الأولاد ، المتحكمة في علاقات الزوج ، حتى بأمه وأبيه وذوي قرابته .

وهناك في مجال الميراث : مَنْ يحرم البنات من ميراثهن الشرعي الذي كتبه الله لهن ، ليخص بذلك أبناء الذكور ، كأنما يستدرك على الله تعالى في حكمه . وعلى النقيض من ذلك مَنْ يريد أن يُسوِّي بين الابن والبنت ، خلافاً لما فرض الله عزَّ وجلَّ في كتابه ، ناسياً أن الشرع فاوت بينهما في الأنصبة ، لأنه فاوت بينهما في الأعباء والتكاليف المالية .

والأمثلة على ذلك كثيرة . وحسبنا ما ذكرناه .

ثم على المجتمع أن يحمي هذه الآداب والتقاليد بعد ذلك بالقانون والتشريع ، فلا يترك الحبل على الغارب للذين يريدون أن يفسدوا آداب الأمة ، ويمحوا معالم شخصيتها ، ويدمروا تقاليدها ، التي تلققتها من وحي ربها ، وفرضها عليها شرعها .

فإذا تهاون المجتمع في آدابه وتقاليده ، وأطلق العنان للمخربين يفعلون ما يشاءون ، فقد تخلى عن رسالة المجتمع المسلم الحق .

ليس بمجتمع مسلم صادق الإسلام : ذلك الذي ينسلخ من تقاليده العريقة ، وينفلت من آدابه الأصيلة ، ليتقبل تقاليد دخيلة ، وآداباً غريبة عنه ، فتذوب شخصيته ، وتمحى ذاتيته ، ويصبح ذيلاً لغيره ، وقد جعله الله رأساً .

فترى أبناءه يأكلون بالشمال ويشربون بالشمال ، ورجالهم يتحلون بخواتم الذهب ، ونسائه يتشبهن بالكافرات في كشف الشعور ، وتعريّة الصدور ، وإبداء البطون والظهور .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يختلي فيه الرجال بالنساء ، بلا زوج ولا محرّم ، ولا رقيب ولا حسيب .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يختلط فيه الفتيان والفتيات - اختلاط تماس واحتكاك والتصاق - في المعاهد والجامعات ، والمعسكرات والرحلات ، ووسائل المواصلات .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تُترك فيه المؤسسات المشبوهة : الصحفية والسينمائية والإعلامية ، تخرب كيان الأمة ، وتسَلطُ عليها ريحاً سَمُومًا فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر سادتها من الصهاينة والمستعمرين والشيوعيين : بالمقالات المضللة ، والأخبار الزائفة ، والقصص الماجنة ، والصور الفاجرة ، والأغاني الخليعة ، والمسرحيات الداعرة ، و(الأفلام) الهابطة ، والمسلسلات المطعمة بالأباطيل .

إنما المجتمع المسلم حقاً : الذي يحامي عن آدابه الأصيلة ، وتقاليده الثابتة ، كما يحامي عن أرضه أن تُحتل ، وعن حرّماته أن تُنتهك ، وعن ثرواته أن تُتُهَب ، وعن كرامته أن تُهان .

* * *